أبي آدم

قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة

الدكتور عبد الصبور شاهين

• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
• البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

تصميم الغلاف والصفحات الداخلية

عبد الكريم محمود

مقـــدمـــة

قديماً .. قديماً .. قبل أن يخلق الزمان .. كان الله ولا شيء معه .

ثم أراد الله أن يخلق الخلق ، أو الكون ، فقال : كن ، فكان ماأراده الله زماناً ، ومكاناً .. سموات وأرضين ، ومجرات ، ونجوماً وكواكب ، ودواب.. وما لا نعلم من الموجودات التى أنجزتها القدرة الكُنِّيَّة .

ثم أراد اللَّه أن يوجد المخلوق العاقل المؤهل للمعرفة .. فكان الإنسان ..

ولعل هذا هو المعنىُّ بما جاء فى الحديث القدسى الذى حفظناه فى صغرنا ، والذى يقول اللَّه عز وجل فيه عن نفسه : **(كنت كنزاً مخفياً ، فاردت أن أُعرف فخلقت الخلق ، فبى عرفونى)**[1] ـ أو كما قال ..

فأما الزمان والمكان فقد خلقا لتحديد ماهية الأشياء ، وقد جعلهما الخالق سبحانه على مرتبتين : غيب ، وشهادة ، وإذا كان عَالَمُ الغيب قد احتجب وراء أستار الزمان والمكان ، لا يعلم حقائقه إلا موجده سبحانه – فإن عالم الشهادة يحمل فى تفاصيله ملامح ما مضى من الغيب النسبى ، وهو أيضاً دال على وجود الخالق .. الغيب المطلق .. أو غيب الغيب ، وهكذا نرى حقيقة وجود اللَّه فى تصاريف قدرته : ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] .. أى : كأننا – وقد احتجب عنا ذو الجلال – نستطيع أن نستجلى وجوده فى النظر إلى آثار رحمته .. يكفينا بعض آثار هذه الرحمة لنوقن بوجوده سبحانه ، أما الرحمة فلا

(١) قصد المؤلف بإيراد هذه المقولة الدلالة على قدم الخالق وحداثة الخلق ، وهو معنى ظاهر من النص .

سبيل إلى النظر إليها، لأنها صفة من صفات اللّه ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، ولعل ذلك بعض معنى الحديث : (جعل اللّه الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً ، فَمِنْ ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) .

إن كل ما فى كيان الإنسان ، وواقعه ، وزمانه ، ومكانه هو من آثار رحمة اللّه ، وحَسْب الإنسان أن ينظر فى نفسه ليستيقن بوجود خالقه ، وليتبين آثار رحمته فى خلقه وتسويته وتزويده بالنفخة العلوية التى صار بها متميزاً عن سائر المخلوقات المشاركة فى الحياة الأرضية .

ونحن نخطئ أحياناً حين ننظر إلى الحياة فلا نرى منها غير ذواتنا .. نحن الأناسىّ ، فأما الطير ، والحيوان والحَشَر ، وما ضمّه عالم البحار – فكل ذلك مجرد كائنات متحركة ، تظل تتحرك حتى يخمدها الإنسان لينتفع بها ، أو تلقى مصيرها المحتوم فتبيد ، بمشهد من غطرسة الإنسان الذى يتربع على عرش السيادة على غيره من الكائنات .. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية]

إن القرآن لا يشجع النظرة المستعلية التى تحبس إدراك الإنسان داخل جدران ذاته ، وهو يفتح أمام النظر الإنسانى نافذة رحبة لرؤية غيره بقدر ما يرى نفسه ، واللّه يقول : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الانعام] ، فكل ما خلق اللّه من الدواب .. كبر أو صغر ، هو من الأمم التى خلقها اللّه ، وألزمها بسنن حياتها ومصيرها .. بل وعلّمها ما هى بحاجة إليه فى بقائها واستمرارها ، وعلاقاتها بالأمم الأخرى من الدواب ، وجاءت فى ذلك إشارة القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ

لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ [النور] ، وهى إشارة تثبت لعوالم الطير والحشر ، والحيوان .. وعلى وجه الإجمال : كل من له حياة .. تثبت لها العلم والصلاة والتسبيح ، وهو أمر أكّدته الآية الثالثة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

ومن المعلوم أن أمم الحيوان والطير قد سبقت فى وجودها وجود الإنسان على الأرض ، حسبك من ذلك إشارة القرآن إلى الغراب الذى علّم ابن آدم القاتل كيف يوارى سوأة أخيه ، ولكن وجود هذه الكائنات لم يشغل بال الإنسان ، لأنه لا يمثل فى نظره مشكلة ..

فأما وجود الخليقة البشرية فهو المشكلة الكبرى التى تواردت عليها الرؤى ، وتواترت الاجتهادات .. بدءاً من الرؤية الإسرائيلية ، وقد كانت ذات حظ عظيم من حيث انتشارها ، وتفردها على الساحة الفكرية ، حتى وجدنا أكثر المفسرين للقرآن يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديداً حرفياً .. دون أدنى محاولة تعرض مضمونها على العقل ، وتغربل ما حفلت به من خرافات وأساطير .

وإلى القارئ جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء ، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص ١٦ – ١٧– ط . شقرون) :

(قال المفسرون بألفاظ مختلفة ، ومعان متفقة : إن اللّه تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى اللّه إلى الأرض : إنى خالق منك خلقاً ، منهم من يطيعنى ، ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى منهم أدخلته